الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنيان وفيه فصول

الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الخراب إلا كخردلة في كف أحدكم» وقال رواة الأثر: إن لله عز وجل دابة في مرج من مروج في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وست وخمسون مدينة وقيل غير ذلك. وأقاليم الأرض سبعة: الإقليم الأول: الهند. الثاني: الحجاز. الثالث: إقليم مصر. الرابع: إقليم بابل. الخامس: إقليم الروم والشام. السادس: إقليم الترك. السابع: إقليم الصين، وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذي هو سرة الدنيا، وبغداد في وسط هذا الإقليم، فلاعتداله اعتدلت ألوان أهله فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. والممالك المشهورة التي ضبطت عدتها في زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر، وأضيقها ثلاث أيام، وقال أهل الهيئة إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان في سنة واحدة. وإنه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل، وستة أشهر نهار وبعضها حرّ وبعضها برد فسبحان من خلق كلّ شيء فاتقنه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الجبال

قيل إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرّت وجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ، إلى ألف فرسخ. ولنذكر منها ما هو مشهور معروف بين الناس. فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً، وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الياقوت، وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخر ويثقب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد. جبل الروم الذي فيه السد: طوله سبعمائة فرسخ وينتهي إلى بحر الظلمات. جبل أبي قبيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس وقيل غير ذلك. جبل القدس جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ويزور

الناس. جبل اروند: بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة، تقصد من كلّ وجه يستشفى بها. جبل بالشام: لونه أسود كالفحم، وترابه أبيض تبيض به الثياب. جبل الأندلس: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه أوقدت، وبها جبل به عينان إحداهما باردة، والأخرى حارة والمسافة التي بينهما مقدار شبر. وجبل به معدن الكبريت والزئبق والزنجفر. جبل سمرقند.: يقطر منه ماء في الصيف يصير جلمداً وفي الشتاء يحرق من حرارته. جبل الصور: بكرمان يكسر حجرة فيخرج منه كصور الآدميين، قائمين وقاعدين، ومضطجعين وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك. جبل الأرّجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثمناً. جبل هرمز: ينزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف، فإن ثنى جرى. جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة. ولنقتصر على ذلك من أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ مرآة الزمان.

الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ونقلة الأخبار: إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام، وبقعته بكوني من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات، قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناه بالحجارة والرصاص والشمع واللبان ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبلت بها ألسنة الناس فسميت أرض بابل. ﴿إِرَمَ ذَاتِ العمادِ * التي لم يُخْلَقْ مثلُها في البلادِ﴾[1].

حكى الشعبي في كتاب سير الملوك أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة﴾[2] وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى فقال له شداد إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب، ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعدني به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يخرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء، طيبة الهواء، بعيدة من الجبال ليبني فيها مدينة من ذهب. قال فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فرأوا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبتهم تلك الأرض فأمروا المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها[3] أربعون فرسخاً، من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء وبنوا الجدران بحجارة الجزع[4] اليماني حتى ظهر على وجه الأرض، ثم حاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس. وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب، واتخذه لبناً، ولم يترك في يد أحد من

---

١) سورة: الفجر، الآيتان: ٧ـ ٨.
٢) سورة: فصلت، الآية: ١٥.
٣) دورها: محيطها.
٤) الجزع: ضرب من الرخام.

الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته، كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد واليواقيت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر واليواقيت، وحلى قصورها بصفائح من الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار، جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد واليواقيت واللآلىء، وطلى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد واليواقيت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة، الصادح والمغرد وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة برسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً، وستوراً، وفرشاً، من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به.

فلما فراغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال قد وصلت إلى ما كان هو يعدني به بعد الموت وقد حصلت عليه في الدنيا فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفة عين، فخروا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وأنه أهلَكَ عاداً الأولى﴾[1] وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل في تلك البرّية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة واليواقيت تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً. وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عبد اللّه بن قلابة الأنصاري دخل إليها، وذلك أنه ضلت له إبل فخرج في طلبها فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليها أناخ راحلته ودخل المدينة فرأى تلك القصور، والأنهار، والأشجار ولم ير في المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر واليواقيت في وعاء وجعله على راحلته، وعلّم على المدينة علامة، وقال قربها من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع ما رآه. فقال له معاوية: في اليقظة رأيتها أم في المنام. قال بل في اليقظة وقد حملت معي من حصبائها وأخرج له شيئاً مما حمله من الجواهر واليواقيت فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال معاوية: يا أبا سحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبيه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿ألم تَر كيف فعلَ ربُّك بعادٍ * إرمَ ذاتِ العمادِ * التي لم يَخْلُقْ مثلَها في البلاد﴾[2] وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري. ثم التفت فرأى عبد اللّه بن قلابة. فقال: ها هوذا يا أمير المؤمنين وصفته واسمه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا مَنْ كان حاضراً، بل قال إن النبي ﷺ قال: يدخلها بعض أمتي والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) سورة: النجم، الآية: ٥٠.

(٢) سورة: الفجر، الآيات: من ٦ ـ ٨.

ومن المباني العجيبة الخورنق الذي بناه النعمان بن امرىء القيس، وهو النعمان الأكبر بناه في عشرين سنة، فلما نتهى أعجبه فخشى أن يبني لغيره فأمر أن يلقى بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب ه المثل: جزاه جزاء سنمار قال الشاعر:

جـــزى بنـــوه أبـــا الغيـــلان عـــن كبـــرٍ وحســـن فعـــل كمـــا يُجـــزى سنمـــارُ

ومن المباني العجيبة حائط العجوز واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولداً فأخذت له لرصد، فقيل له يخشى عليه من التمساح، فلمّا شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي. وقيل بنته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها. وقد نيل إنها أرادت أن تخوّف ولدها من التمساح حتى لا ينزل البحر فصورت له صورة التماسح فرآه شكلاً مهولاً فأذهله، وأخذه الفزع والهم فضعف وانسل إلى أن مات لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا، قيل إن دور الهرم الأكبر من لثلاثة، ألفا ذراع، من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرماً وتعجب من بنيانها وصفتها. قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة ذرع وقد أحكم إلصاقه ونحته وتسويته، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أيـــن الـــذي الهـــرمـــان مـــن بنيـــانـــه مـــا قـــومـــه مـــا يـــومـــه مـــا المصـــرع
تتخلـــف الآثـــار عـــن سكـــانهـــا حينـــاً ويـــدركهـــا الفنـــاء فتصـــرع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم، كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بنقبها فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوٍ يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد في أعلاه بيتاً وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه، ويقال إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراق بن سرياق لرؤيا رآها، وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان. فقالوا إنه بناها في ستة أشهر وقال: قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البنيان، وكسوناها الديباج الملّون فَلْيَكْسِهَا حصراً، الحصر أهون من الديباج والأمر فيها عجيب جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منارة الاسكندرية: التي بناها ذو القرنين. قيل إنها كانت مبنية بحجارة مهندمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبيوت طاقات تطل على البحر، ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفي أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فإذا صار العدوّ على نحو ميلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدوّ فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوّت مطرباً، ويقال إنه كان بأعلاها مرآة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة نبرس، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقربوا من

المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرآة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر ويهلك كل من فيها. وكانت الروم تؤدّي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً وهدايا. وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن ببلاده دفائن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً، قيل انهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال. وقالوا للوليد إن تحت المنارة كنوزاً لا تنفد وبازائها خبية، بها كذا وكذ ألف دينار فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها، فحفرو واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها، فهدموها فلم يجدوا شيئاً وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعو إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرآة كما كانت. فصدئت ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أوّلا وبطل إحراقها فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد عملت الجنّ لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجزع اليماني المصقول كالمرآة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفائها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخا، طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرّك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه. وفي مدينة حمص، مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فهي من عجائب البنيان، والبيوت، والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال لـ اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء، كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت، ليس في الدار خشبة واحدة، بل أبوابها وغرفها وسقوفها، وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمله من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة، إذا خاف أهل تلك النواحي من العدوّ دخلوا إلى تلك المدينة، فينزل كل إنسان في دار بجميع عياله، وخيله، وغنمه، وبقره ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار فيما يقال ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عن الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنو شروان: بناه سابور ذو الاكتاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناه بالآجر والجص، وجعل طول كل شرافة من شراريفه خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً. وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه، وأن يجعل آلته في بنائه فقيل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك. وقيل إنّ بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه هو آية الإسلام فلا تهدمه. وحكي أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها مرآة، إذا أتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرآة فيرى صورة الزاني، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرت من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.